بيوم شفاعة، فقلت له : وما المخرج ؟ فقال بُؤْ للأمير بالشرك والنفاق ، وبالحرى أن تنجو ، فلما دخلتُ على الحجاج قال لى : وأنت ياشعبىّ ممن خرج علينا ! قلت : أصلح الله الأمير ! أحزَن بنا المنزل ، وأجدَب بنا الجناب ، واستحلَسْنا الخوف ، وضاق الملك ، وخبطتنا[1] فتنة ، لم نكن فيها بررة أولياء ، ولا فجَرة أقوياء ، قال : لله أبوك ! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ، ولا قويتم. خلّوا سبيلَه .

وكلم ابنَ هبيرة فى قوم حبسهم ، فقال : إن كنت حبستَهم بباطل ، فالحقُّ يُطلِقهم ، وإن كنتَ حبستَهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم.

ودخل عليه رجل من النَّوْكَى ، وهو جالس مع امرأة ، فقال : أيُّكما الشعبى ؟ فقال له: هذا ، فقال: ماتقول أصلحك الله فى رجل شتَمنى فى أوّل يوم من رمضان هل يُؤْجر ؟ فقال له الشعبىّ : أما إن كان قال لك: يا أحمق ، فأرجو له الأجر .

وسأله آخر، فقال : ماتقول فى رجل أدخل إصبعه فى أنفه فى الصلاة ، فخرج عليها دم ، أترى له أن يحتجم ؟ فقال : الحمد لله الذى نَقَلَنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله آخر : كيف كانت تسمى امرأة إبليس ؟ قال ذلك نكاح لم نشهده

ودخل الحمّام فرأى داود الأودِىّ بلا مئزر ، فغمّض عينيه ، فقال له داود : مَتَى عميت ياأبا عمرو ؟ فقال : مذ هتَك الله سترك . ومات فى سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرِىّ الفراهيدىّ، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فَهم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدى ، ويقال : اليَحْمَدىّ . واليحمَد بطن من الأزْد .

(١) ط : « خطبتنا »

وكان الخليل من أزهد الناس وأعلاهم نفساً ، وأشدّهم تعفُّفاً ، ولقد كان الملوك يقصِدُونه ويتعرّفون إليه لينال منهم ، فلم يفعل ، وكان يعيش من بُستانٍ له خلّفه عليه والده ، وكان يغزو سنة ويحج أخرى ، حتى جاءه الموت .

محمد بن حميد ، قال : تزوّجت إلى جيران الخليل ، فنزلتُ عليهم ، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل ، فقالوا لى : ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى ، وإنه ليغيب عنّا فى غزوٍ وَحَجّ فنستوحش إليه ، وقالوا : لا يجوز الصراطَ بعد الأنبياء والصحابة أدَقُّ ذهناً من الخليل . وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه ، لأنه أوّل من تَسَمّى بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو عاصم : دخلت عليه قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فعلت قطّ فعلا أخاف على نفسى منه وكان لى فضل فكر ، صرفته إلى جهةٍ وَدِدْت أنى كنت صرفتُه إلى غيرها . وما علمت أنى كذبت متعمّداً قطّ ، وأرجو أن يغفر الله لى الغلَط .

واجتمع أدباء من كلّ أفق ، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم ، ويقدّمونهم حتى جَرَى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها .

النّضر : مارأى الراءون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . وكان أشعثَ الرأس، شاحبَ اللون ، قشِف الهيئة ، متخرّق الثياب ، متقلّع القدمين ، مغموراً فى الناس لا يُعرف .

محمد بن الفضل : كان بالبصرة رجل يعطى دواء لظلمة البصر ، فينتفع به الناس ، فمات فأضَرّ ذلك بمن كان يستعمله ، فذُكر للخليل فقال : ألَه نسخة ؟ فقالوا : لم نجدها ، قال : فهل كان له آنية يعمله فيها ؟ قالوا : نعم ، إناء يجمع فيه أخلاطاً ، قال : فجيئونى به ، فجعل يتشَمّمه ، ويخرج نوعاً نوعا حتى

أخرج خمسة عشر نوعاً ، ثم سأل عن جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعمله ، وأعطاه الناس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة . ثم وجدت النسخة فى كُتب الرجل ، فإذا فيها ستة عشر خَلطا ، فلم يغفل إلا عن خلْط واحد .

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية،نخلا به شهراً حتى فَهِمه ، فقيل له فى ذلك ،قال : قلت : لابدّ أن يفتتح الكتاب باسم الله تعالى وماأشبهه ، فهَنَيت أوّل الحروف على ذلك حتى انقاستْ لى.

النَّضر بن شميل . جاء رجل من حَلْقة يونس ، فسأل الخليل عن شىء ، فأطرق يفكّر ، فقالوا له : ما هذا مما يحتاج إلى فكْر يفكِّر فيه ! فقال لهم : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال : فإنه يزيدكم فى الجواب كذا ، قالوا : يقول كذا ، يقول : كذا ، فانقطعوا ، فقال : ما أجبت بجواب قطّ إلا وأنا أعرِف آخر ما علىّ فيه .

وكان يخرج من منزِله فلم يشعر إلا وهو فى الصحراء ، ولم يردّها لشغله بالفكْر .

وقال النضر : سمعت الخليلَ يقول : الأيام ثلاثة : فمعهود وهو أمس ، ومشهود وهو اليوم ، وموعود وهو غد .

وقال الخليل : إذا نسِخ الكتاب ثلاثَ نُسخ ولم يعارَض به تحوّل بالفارسية .

ورأى مع رجل دِفْتراً وفيه خطّ دقيق ، فقال لصاحبه : أيِسْت يا هذا من طول عمرك !

وقال : إن لم تعلّم الناس ثوباً فعلّمهم لتدرس بتعليمهم علمك ، ولا تجزع من تفرّع السؤال ، فإنه ينبّهك على علم مالم تعلم .

وقال : أكثِر من العلم لتفهمْ ، واختر قليلا منه لتحفظ .

وكان يقول : إذا خرجتُ من منزلى لقيت أحدَ ثلاثة ، إمّا رجلاً أعلم بشىء منى ، فذلك يوم فائدة ، أو مثلى فذلك يوم مذاكرة ، أو دُونى فذلك يوم ثواب .

وقال : من الناس مَنْ يدرى ويدْرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتّبعوه ، ومنهم مَنْ لا يَدْرى ولا يدرى أنه لا يَدْرِى ، فذلك جاهل فاحذروه ، ومنهم مَنْ يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك ضالٌّ فأرشدوه .

وكان يقول : إذا أردت أن تعلم خطأ معلّمك من صوابه فجالس غيره .

وقال : أنا أول مَنْ سمّى الأوعية ظروفا؛ لأنّها جُعِلت ظرفا للأدب والنظافة.

وقال : أدركت بعض ما أنا فيه بإطّراح الحشمة بينى وبين المعلّمين ، ومَنْ رَقّ وجهه فى طلب العلم رَقّ علمه .

وقال : إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه ، فإنك إذا نبّهته على خطئه أسرعتْ إفادته ، واكتسبْت عداوته .

وقال : اجملْ ما تكتسب بيتَ مال ، وما فى صدرك النفقة .

وقال : العلوم أقفال والسؤالات مفاتيحها .

وقال : النّاس فى سجن ما لم يتحازحوا .

وقال : الرجل بلا صديق ، كاليمين بلا شمال .

وقيل له : إن استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو ، فقال : نعم ، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نَسْجِه .

وقيل له : ما الجود ؟ فقال : بذل المجهود ، قيل له : فما الزهد ؟ قال : ألاّ تطلب المفقود ، حتى تفقد الموجود .

وقال : الدنيا أمَدٌ والآخرة أبد .

وقال: حسب امرئٍ من الشرّ أن يرى فى نفسه فساداً لا يصلحه ، ومَنْ علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحوّل أن يتحوّل المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه .

وقال : الدنيا أضداد متجاورة وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأباعد متقاربة .

وقال : ثلاثة أشياء أنا أحبّها للنفس ولمن أحبّ رشده : أحبّ أن أكون بينى وبين ربى من أفضل عباده ، وأكون بينى وبين الخليقة مِنْ أوسطهم ، وأكون بينى وبين نفسى من شرّهم . وقال عبد الله بن داود : لو كتب شىء بالذهب لكتب هذا .

ونظر فى فقه لأبى حنيفة ، فقيل له : كيف ترى؟ فقال : أرى جدًّا وطريق جدّ ، ونحن فى هزل وطريق هزل .

وقال عبد الله بن داود : لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرّغائب ، وإنه لبينَ أخصاص البصرة ، يزهد فيما يُرْغب فيه .

وقال : ثلاثٌ يُنْسِين المصائب : مَرّ الليالى ، والمرأة الحسناء ، ومحادثة الرجال .

النّضر : سمعت الخليل يقول : التوانى إضاعة ، والحزم بضاعة ، والإنصاف راحة ، والنجاح وَقاحة .

وكان له غلام كثير الخلاف عليه ، فقال له يوما : قُمْ ، فقال : لا أقوم ، فقال : اقعد : فقال : لا أقعد ، قال : فأىّ شىء تصنع ؟ قال : لا أصنع شيئاً . ويشبه هذا قولُ الشاعر فى امرأته :

سكتُّ فقالتِ لمْ سكتّ عن الحقّ وقلْتُ فقالت: مادَهاكَ إلى النُّطقِ[1]
فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذاوذا فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمقِ
فلم أرَ لى إذ حلّت الغربَ راحةً من الشرّ إلا فى الهروب إلى الشّرقِ
فلما أتيت الشّرق ألفيتُهـا به وقد قعدتْ لى منه فى ضيّق الطُّرقِ

وإنما أكثرنا من أخباره لأنّها آداب ، وحِكَمٌ مَن اقتدى بها اهتدى ، وما تركناه من أخباره أكثر ، وذكْر النحو والعروض مؤخّر إلى المحسن إن شاء الله تعالى :

ولتقدّمه فى العلم ضربت الشعراء به المثل ، فمن ذلك قول أبى تمام يهجو عياش بن لهيعة :

ولو نشر الخليلُ له لعمّتْ بلادتُه على فِطَنِ الخليـــل[2]
فما أدرى عمائى عن رشادى دَهانِى أم عماك عن الجهلِ

وقال آخر :

يا مَنْ يزيد تمقُّتاً وتباغُضاً فى كل لحظَهْ
واللهِ لو كدتَ الخليـــلَ لما روَيْنا عنك لَفْظَهْ

وأنشد المبرد :

لم تدرِ ما علمُ الخليل فتقتدى بيبان ذاكَ ولا حدودَ المَنْطِقِ

وقال المعرّى :

إذا قيل نُسْكٌ فالخليل ابن آزرٍ وإن قيل فهمٌ فالخليل أخو الفَهْمِ

(١) ديوانه ٣٠٥

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقا لى ، فدخلت عليه يوما ؛ فقال: أجز

رأيت غنى الإنسان نفسا زكية

فقلت :

* مُطَهَّرَةٌ من كلِّ رِجْسٍ وباطِلِ *

فقال :

* فى عاجل الدنيا مديح ورفعةٌ *

فقلت :

* وخيرٌ عظيم عاجلٌ بعد آجلِ *

فقال : والله جئت بما فى نفسى ، ثم قال :

كأنّك كنت قد خامرْت قلبى فجئتَ بما شَفَيْتَ به الغليلاَ
رأيتَ براعة الإيجاز أشْفَى فصارَ كثيرُ غيرِك لى قليلاَ

وله :

العلم يُذْكِى عقولاً حين يصحبُها وقد يزيدُها طولَ التجاريبِ
وذو العادُّب فى الجهّال مغتربٌ يَرَى ويَسْمَعُ ألوانَ العَجاجِيب

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فتشاغل عنهم سليمان ، فذكروا ذلك للخليل فكتب إليه :

لا تقبلنّ الشِّعر ثم تعقّه وتنام والشُّعراء غير نيامِ
واعلم بأنّهمُ إذا لم ينصفوا حكمُوا لأنفسهم على الحُكّامِ
وجناية الجانى عليهم تنقضى وكلومهمْ تبقى على الأيّام

* * *

[ذكر جرير]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطفى . شاعر من فحول العرب ، واتفقت العلماء على أنّ أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثرهم على تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئا من غزله وهجوه ، نستدلّ به على منزلة شرفه فى الشعر : ورأت أمه وهى حامل به كأنها ولدت جملاً من شَعْر أسود ، فلما سقط جعل ينزُو فيقع فى عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعةً فأوّلت الرؤيا، فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا أشرٍ وشدة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمّته جريراً، باسم الحبل الذى رأته ، فهاجاه ثمانون شاعراً ، فغلبهم .

وقال جرير : ماعشقتُ ولوعَشِقْتُ لنسبت نسيبا تسمّعه العجوز فتبكى على عاتقها من شبابها . قالوا : وأرقُّ ماجاء فى النسيب قوله :

إنّ العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قَتْلانا[1]
يَضْرَعن ذا اللُّبّ حتى لاحَراك له وهنّ أضعفُ خلق الله أركانا
أنصتهمْ مُقْلةَ إنسانُها غرِقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا !

ومثل هذا أوجب على الحريرى أن يذكر جريراً بالغزل ، وإلا فقد أُخِذ عليه فى ذكر جرير بالغزل ، وإنما الذى اشتهر فى زمانه بالغَزَل مثل عمر بن أبى ربيعة وكثيّر عزة وجميل وقيس بن ذريح وأمثال هؤلاء ، وإنما اشتهر جرير بالمدح والهجو ، ولانطباعه قد جاء فى شعره من الغزل الرقيق كثير ، وإن كان تكلّفا إذ لم يعشق . قال الجاحظ : كان الفرزدق مشتهراً بالنساء ، ومع ذلك

(١) ديوانه ٥٩٥ ، ٥٩٦ وفيه، « فى طرفها مرض »

فليس له بيت واحد فى النّسيب ، وكان جرير عفيفاً لم يعشق امرأة قط ، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً .

وسئل الفرزدق عنه فتنفّس حتى كادت حمائزه تنشقّ ، ثم قال : قاتله الله ! فما أحسن ناحيتَه وأشرَد قافيتَه ، والله لو تركوه لأبكى الشابّةَ على أحبابها ، والعجوز على شبابها ، ولكنهم هزؤوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحا ، ولقد قال بيتا ، لأن أكون قلتُه أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، وهو :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ النّاس كلّهمُ غضابا[1]

وقال مسعود بن بشر : قلت لابن مناذر : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : من إذا شئتَ جدّ ، وإذا شئت لعب ، وإذا شئت أطمعك لعبه ، وإذا رمتَه بعُد عليك ، وإذا جدّ فيما قصد له آيسك من نفسه . قلت : مثل مَنْ ، قال : مثل جرير إذ يقول حين لعب :

إنّ الذين غَدَوْا بلبّك غادروا وشَلاً بعينك لا يزال مَعينا[2]
غيّضْنَ من عبراتهنّ وقلنَ لى ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا !

ثم قال حين جدّ :

إنّ الذى حَرَم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوّة فيها[3]
مضرٌ أبى وأبوللوك فهل لكمُ ياخُزْرَ تَغْلِبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفةً لو شئتْ قادَكمُ إلىّ قَطينا

---

(١) ديوانه ٧٨
(٢) ديوانه ٥٧٨
(٣) ديوانه ٥٧٨ ، ٥٧٩

فلما بلغ عبد الملك هذا، قال :مازادابن المراغة أن جعلني شُرْطيًا له !أما إنه لو قال: « لو شاء ساقكم » لسُقْتُهُمْ إليه كما قال .

ونزل الفرزدق حين قدم على الأخوص فقال : ماتشتهي ؟ قال شواء وظلاً وغناء ، قال: ذلك لك ، ومضى به إلى قينة فغنّته :

ألا حيّ الديار بسعدَ إنّى أحبُّ لحبِّ فاطمة الدّيارا[1]
إذا ماحلّ أهلُكِ ياسُلَيمَى بدارة صُلْصلٍ شَحَطُوا مَزَارا[2]
أراد الظاعنون ليحزنُونى فهاجوا صَدْع قلبيَ فاستطَارا[3]

فقال : ما أرقّ أشعاركم يا أهل الحجاز ! قال : أو تدرى لمن هذا ؟ قال : هو لجرير يهجوك ، قال :ويلٌ لابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عَفافِه إلى صلابة شعرى، وأحوجنى مع فسوق إلى رِقة شعره ، وفى الفرزدق منها :

وكنتَ إذا نزلتَ[4] بدار قومٍ رحلتَ بخَزْيةٍ وتركْتَ عارا

وقال جرير :

لقد طال كتمانى أمامة حبَّها فهذا أوان الحبّ تَبْدُو شواكُلُه[5]
وإنى وإن لام العواذلُ مولعٌ بحبّ الغَضامِن حُبّ مَنْ لا يزايلُهُ
ولما استقرّ الحبّ ألقتْ بيَ العصا[6] ومات الهوى لمّا أصيبت مقاتلُه
وقلن تَزَوّجْ لا يكن لك حاجة[7] وقلبك لاتشغل وهُنّ شواغِلُه

---

(١) ديوانه ٢٨٠
(٢) الديوان : « المزارا »
(٣) الديوان : « ليحزنونى » .
(٤) الديوان : « حللت » . .
(٥) ديوانه ٤٧٨
(٦) الديوان :

« فلمّا التقى الحيّان ألقيتِ العَصَا »

(٧) الديوان :

« وقُلْنَ تروّحْ لاتكن لك ضيعة »

وقال أيضاً :

يا أخت ناجيةَ السّلامُ عليكمُ ... قبل الرّحيل وقبل لوم العُذّلِ[1]
لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدِكُمْ ... يومُ الفراق فعلتُ مالم يفعلِ

وقال أيضاً :

بنفسي مَنْ تجنّبُه عزيز ... عليّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ[2]
ومَنْ أمسى وأصبح لا أراه ... ويَطْرُقني إذا هَجَع النّيامُ
أتذكر إذ تودّعنا سُلَيمَى ... بفرع بشامةٍ سُقِيَ البَشَامُ

وقال أيضاً :

لاتكثرنّ إذا جَعَلْتَ تلُومني ... لا يذهبنّ بفعلك الإكثارُ[3]
كان الخليطُ هُمُ الخليطُ فزايلُوا ... ولقد تبدّل بالديار ديارُ
لاَيَبْعُدُ القُرَناء أن يتفرّقوا ... ليلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ

ومن هجوه في الراعي:

فغضّ الطرف إنّك من نُمير ... فلا كعباً بلغت ولا كِلاَبا[4]

وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه ، وقال : أخزيتَه والله وغصصته،وقدّمت أخويه عليه،والله لايفلح بعدها، وكان كما قال، ما أفلح بعدها هو ولا نمير .

وقال في جندل بن الراعي :

أجندلُ ما تقول بنو نمير ... إذا ماالأيرُ في است أبيك غابا[5]

---

(١) ديوانه ٤٤٣ :
يا أمّ ناجيةَ السلام عليكمُ ... قبل الرّواحِ وقبلَ لَوْمِ العُذّلِ[6]
(٢) ديوانه ٥١٢ .
(٣) ديوانه ٢٠١
(٤) ديوانه ٧٥
(٥) ديوانه ٧٥

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف ، فلما بلغ إلى قوله :

* تَرَى برصاً بأجمع إسكتَيها *

وضع الفَرزدق يده على فيه ، وغطى منفقته فقال :

* كَمَنْفَقَةِ الفرزدق حين شابا *(١)

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهمّ أخزِه ، ولقد علمت حين بدأ البيت ألاّ يقول غيرها ، ولكن طمعتُ ألاّ تأتيَهُ .

وقال في ابن لجا :

تَعَرَّضتْ تيم لِي عمداً لأشتِمها كما تَعَرَّض لاستِ الخارئ الحجرُ(٢)
ياتيمَ تَيْمَ عديّ لا أبالكُمُ لايلقينّكمُ في سوءةٍ عمرُ

وقال يذكر أمه :

تقول والعبدُ مسكين يُزَحِّرُها رفقاً فِداكِ أنت الناكح الذكرُ(٣)

وبينا جرير ينشد في زوجته :

لولا الحياء لعادني استعبارُ ولزرت قبرك والحبيبُ يُزَارُ(٤)
كانت إذا هَجَر الضجيعُ فراشَها(٥) كَتَمَ الحديثُ وعفّت الأسرارُ
لايلبث القرناءُ أن يتصدّعوا لَيْلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ

إذ طلع الأخوص فقطع إنشاده ، ورفع صوته ، يقول :

عَوَى الشعراء بعضهمُ لبعضٍ علىّ فقدْ أصابهمُ انتقامُ(٦)

---

(١) ديوانه ٦٩ (٢) ديوانه ٢٨٣
(٣) ديوانه ٢٨٦ (٤) ديوانه ١٩٩ ، ٢٠١
(٥) الديوان : « هَجَر الخليلُ فِراشَها » .
(٦) ديوانه ٥١٣ ، الأغاني ٨ : ٦٥

إذا أرسلتُ صاعقةً عليهمْ رأوا أخرى تحرّق فاستدامُوا[1]
فصَلْمَ[2] السامع أو خَصِيٌّ وآخرُ عظمُ هامَتِيهِ حُطَام

ثم عاد . فقيل : لم فعلت هذا ؟ قال: إنى نَهيت الأحوص أن يهجو الفرزدق [علىّ][3] وإنى والله يابنى عمرو بن عوف ماتعوّذت من شاعر قط ، ولولا حكمكم مانَعوّذْتُ منه .

الأصمعىّ : حدثنى أبى قال : رأى رجل جريرا فى المنام ، فقال : مافعل الله بك ؟ قال : غفرلى، قال: بماذا قال بتكبيرةٍ كبّرت الله فى الخمر - وهو ماء بالبادية - قال : فما فعل أخوك الفرزدق ؟ قال : هيهات أهلكه قذفُ المحصنات .

قال الأصمعىّ : لم يَدَعْه فى الحياة ولا فى الممات ، وتوفّىَ سنة أربع عشرة ومائة .

* * *

[ذكر قس بن ساعدة الإيادى]

وأما قسّ بن ساعدة الإيادىّ ، فيضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة ، فيقال : أبلغ من قُسّ ، وهو أسقفّ نَجْران ، وهو من حكماء العرب ، وكان مؤمناً بالله ومبشّرا برسوله ، وهو أول مَنْ خطب متوكّئاً على عصا ، وأوّلُ مَنْ كتب : من فلان إلى فلان ، وفيه يقول الأعشى :

وأفصح من قُسٍّ وأجرى مِنَ الذى بذى العين من خَفّان أصْبَحَ خادرا[5]

ولمّا[6] قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألهم عن رجل

(١) استداموا ، أى انظروا .
(٢) مصطلم : مقطوع (٣) من الأغانى
(٤) فى معجم البلدان : خر: شعب من أعراض المدينة .
(٥) البيت ليس فى ديوانه
(٦) الخبر فى الأغانى ١٥ : ٢٤٦

كان فيهم نازلاً ، يقال له : قُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاظ يخطُب على جمل له أورق[1] وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ما هو آت آت ، ليلٌ موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يمور . أمّا بعد ، فإنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لعبراً ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضُوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم فناموا . أقسم بالله قسٌّ قسماً حقا ، فما حَنَثَ ولا أثم ، إنّ لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا الذى نحن عليه ، ثم قال أبياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ! قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

فى الذاهبين الأوّلين من القُرون لَنَا بصائرْ
لمّا رأيت مواردا للموت ليسَ لها مصادرْ
ورأيتُ قومى نحوها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لايرجع الماضى ولاَ يبقى من الباقين غابرْ
أيقنتُ أنى لامحا لة حيثُ صار القوم صائرْ

وقال صاحب الأغانى[1] فيه هو قسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك بن أيدعان[2] بن النَّمِر بن واثلة بن الطَّمثان بن عَبْد مناة بن يقدم بن أفصى ابن دُعْمىّ بن إياد .

وكان يفِد على قيصر زائرا فيكرمه ويعظّمه ، فقال له قيصر : ما أفضلُ العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه : قال : فما أفضل

(١) الأورق : الذى فيه سواد وبياض .
(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٦ (٢) ط : « أرعان » ، والمثبت من الأغانى

المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قُضِيَ به الحقّ.

ابن عباس رضى الله عنهما : وفد الجارود بن عبد الله فى وفد عبد القَيْس، وكان سيِّدا فى قومه ، معظَّما فى عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسرّ النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : ياجارود ، هل فى جماعة عبد القيس مَنْ يعرف لنا قُسًّا ؟ قال : كلنا نعرفه يارسول الله ، وأنا كنت مَنْ بينهم، أقفو أثره ، وأطلع خبرَه ، كان قُسّ سِبْطًا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ، ذا شيمة حسنة ، عُمِّر سبعمائة سنة، يتقفّر القِفار ، ولا تكُنُّه دار، ولا يُقِرّه قرار ، يتحسَّى فى تقفّره بعضَ الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوامّ ، يلبس المُسوح ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يغيّر الرّهبانية ، مقرٌّ بالوحدانية ، تُضرب بحكمته الأمثال وتنكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، فهو أول من تألّه[1] من العرب وأعْبَدُ مَنْ تعبّد فى الحِقَب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذّر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسَن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، ويابس ورَطْب ، وأجاج وعذب ، كأنى أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالربّ الذى هُو له : ليبلغنّ الكتاب أجله ، وليوفينّ كلّ عامل عمله ، ثم أنشا يقول :

هاج لِلْقَلْبِ من هواه ادّكارُ ... ولِيالٍ خلالهنّ نهارُ
ونجوم يحثّها قمر الأَيْـ ... ـل وشمسٌ فى كلّ يوم تدارُ
ضوءها يطمس العيون وإرعا ... دٌ شديد فى الخافقين مُثارُ
وغلام وأشمطٌ ورضيعٌ ... كلُّهم فى التراب يوماً يُزارُ
وقصور مشيَّدة حوت الخيـ ... ـرَ وأخرى خَوَتْ فهنّ قفارُ
وكثير ممّا تقصرُ عنه ... حدسةَ النّاظر الذى لا يحارُ

(١) تأله ، أى تعبد .

والّذى قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدًى واعتبارُ

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : على رِسْلِك ياجارود ، فلستُ أنساه بسوق عكاظ ، على جمل له أوْرَق ، وهو يتكلّم بكلام موزون ، ما أظنّ أحفظه ، فهل فيكم يامعشر المهاجرين والأنصار مَنْ يحفظ لنا منه شيئاً ؟ فوثب أبو بكر قائماً ، وقال : يارسول الله ، أنا أحفظه وكنت حاضراً بعُكاظ حين خطب فأطنبَ ، ورهّب ورغّب ، وحذّر وأنذر ، وقال فى خطبته : أيُّها الناس اسمَعُوا وعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه مَنْ عاش مات ، ومَنْ مات فات ، وكلّ ماهو آت آت ، مَطَرٌ ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجَمْع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لَعِبراً ، ليلٌ داجٍ ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُرِكوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌّ بالله قسما حقًّا لا آثما فيه ولا حانثا ، إنّ لله ديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيًّا قد حان حينُه ، وأظلّكم أوَانُه وأدركَكم إبّانُه ، فطوبَى لمن آمن به فهداه ، ووَيْلٌ لمن خالفه وعصاه ! ثم قال : تبًّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية ، والقُرون الماضية ! يامعشرَ إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعوّاد ، وأين الفراعنة الشِّداد ؟ أين مَنْ بنى وشيّد ، وزخْرَف ونجّد ، وغرّه المال والولد ! أين مَنْ بَغَى وطغَى ، وجمع فأوعى ، وقال : أنا ربّكم الأعلى . ألم يكونُوا أكثرَ منكم أموالاً ، وأطولَ منكم آجالا ، طَحَنَهم الثّرى بكَلْكله ، وَمزّقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عَمّرتها الذئاب العاوية . كلاّ بلْ هو المعبود ، ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين . الأبيات المتقدمة . قال : ثم جلس أبو بكر رضى الله عنه ، وقام رجل ذو هامة عظيمة ، وقامة جسيمة ، فقال : ياسيّدَ المرسلين ، وصفوةَ ربّ العالمين ، لقد رأيت من قُسّ عجبا ؛ أشرف بى جمل على وادٍ ،

وشجر من شجر عاد ، مُورقة مونقة ، وقد تهدّل أغصانها . قال : فدنوت منه ، فإذا بُقسّ فى ظل شجرة ، بيده قضيب من أراك يفكّت به الأرض وهو يترنّم ، ويقول :

يا ناعِىَ الموت والملحود فى جَدَثٍ ... عليهمُ من بقايا خَزِّهم خِرَقُ
دعْهم فإنّ لهم يوماً يُطاحُ بهمْ ... فهم إذا انتبهُوْا من نومهم فِرَقُ
حتى يعودوا بحالٍ غير حالهمُ ... خَلْقاً جديداً كما مِنَ قبلها خُلِقُوا
منهمْ عراةٌ وضمنهم فى ثيابهمُ ... منها الجديد ومنها المنهَجُ الخَلَقُ

قال : فدنوت منه ، وسلّمت عليه ، فردّ علىّ السلام ، وإذا بين خرارة ، فى أرض خوارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين ، يلوذان به ، ويتمسّحان بأثوابه ، فأراد أحدهما أن يسبق إلى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربهُ قسٌّ بالقضيب ، وقال : ارجع ثكلتك أمّك ! حتى يشرب الذى وَرَد قبلك . فرجع ثم ورد بعده ، فقلت له : ماهذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لى كانا يعبدان الله معى فى هذا المكان ، لا يُشركان بالله شيئاً ، فأدركهما الموت فقبرتهُما ، وها أنا بين قبريهما ، حتى ألحَقَ بهما . ثم نظر إلى السماء فتفرغرت عيناه بالدموع ، وانكبّ عليهما ، وجعل يقول :

خَليلىّ هبّا طالما قد رقدتُما ... أجِدّكما لا تقضيان كَرَاكُما[1]
ألم تعلما أنى بِسَمْعانَ مفردٌ ... وما لِىَ فيها من خليلٍ سواكَا
مقيم على قبريكما لستُ بارحًا ... طولَ الليالى أو يُجيبَ صداكَا
أبكيكما طول الحياة وَما الذى ... يردّ على ذى عَوْلةٍ إن بَكَاكَا
كأنكما والموت أقرب غاية ... بروحىَ فى قبريكما قد أتاكُما

(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٨

أمِنْ طول نومٍ لا تجيبان داعياً كأنّ الذى يسقى العَقَار سَقَاكُما
فلو جُعلتْ نفس لنفسٍ وقايةً لجدتُ بنفسى أن تكون فِدَاكُما

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله قُسًّا، إنى لأرجو أن يَبْعثه الله أمةً وحده» .

* * *

[ذكر عبد الحميد]

وأما عبد الحميد ، فهو ابن يحيى بن سعيد، كاتب مروان بن محمد، آخر ملوك بنى أمية ، وكتب أيضاً للمنصور . وقيل إنه قتِل مع مروان .

وكان رأساً فى الكتابة ، ومقدماً فى الفصاحة والخطابة ، بليغاً مرسلا، وقال فيه ابن عبدربه : كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان ، وكتب لسليمان بن عبد الملك ، وليزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بنى أمية ؛ حتى انقضت دولتُهم (١) .

وعبدُ الحميد أوّل مَن فَتَقَ أكام البلاغة ، وسهّل طرقها ، وفكّ رقاب الشعر (٢)

وقال له مروان حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ أن تصير مع عدوّى ، وتظهر الغدر بى ؛ فإنّ إعجابهم بآدابك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك ، فإن استطعتَ أن تنفعنى فى حياتى، وإلاّ لم تعجز عن حفظ حُرْمتى بعد وفاتى . فقال له عبد الحميد : إنّ الذى أشرت به علىّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحهما لى، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله لى ولك ،أو أقتل معك . ثم قال :

أميرُ وفاءٍ ثم أظهرِ غَدْرَةً فمن لى بعذر يُوسِعُ الناسَ ظاهرُه (٢)

(١) العقد ٤ : ١٦٥ (٢) العقد ١ : ٩٢

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أوّل من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، واستعملت بعده ، وهو القائل : البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام، من أقرب وجوه الكلام .

ولم يزَل الشُّعراء ومَهَرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال فى كتبهم وأشعارهم فى القديم والحديث ، كفضل الصاحب وقرنائه ، مع طَبْع سَمْحٍ ولفظ عذب ، وصلة نثر بنظم ، فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبيد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ، وإن شاء قال : أنا سعيد .

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

* * *

[ذكر أبى عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء ابن عمار بن عبد الله بن الحُصين بن الحارث ابن جَلْهم بن خُزاعىّ بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: واسمه وكنيته واحد فى الأشْهَر .

الفنجديهىّ: اختُلف فى اسمه على تسعة عشر قولاً، فقيل : اسمه محمد أو حميد أو حمّاد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك ، وأصحّها زَبّان .

واختُلف فى مولده، فقيل: ولد سنة خمس وستين بمكة فى أيام عبد الملك ابن مروان: وقيل: سنة سبعين.

أبو عبيدة : كان أبو عمرو أسَمَر طويلاً ضَرْب اليدين ، حادّ النظر ، مارأيت مثلَه قبله ولا بعده فى فهمه ولا علمِه ، وكان صاحِبَ غريب ونحو وعلم، وهو أحد الأئمة فى القراءة ، وعنه أخذ يونس والأصمعىّ وأبو عبيدة . وفيه يقول الفرزدق :

ما زِلْتُ أغلِقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

وقال ابن مجاهد : كان أبو عمرو مقدّماً فى عصره ، عالماً بالقراءة ووجوهها ، قدوة فى العلم باللغة ، إمام الناس فى العربية .

وكان مع ذلك متمسكا بالآثار ، ولا يكاد يخالف فى اختياره ماجاء عن الأئمة قبله ، متواضعاً فى علمه .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلَمَ الناس بالقرآن والعربية وأيّام العرب وأنسابها وشعرها ، وكانت دفاتره ملء بيت ، فلمّا تنسّك أحرقها ، وجعل على نفسه أن يختم القرآن فى كلّ ثلاث ليال ، فلما أسنّ اختلط بالناس ، واحتاجوا إليه فعوّل على حفظه ، فأملَى من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع .

روى الأصمعىّ عن أبى عمرو قال : كنتُ أسمر مع مسلم بن قتيبة الباهلىّ وكان يعجبه الرّوىّ على السين ، فأنشدهُ ليلة ستين قصيدة على السين لستّين شاعراً ، اسمهم عمرو .

الأصمعىّ : كان لأبى عمرو كلّ يوم من غلّة داره فَلْسان : فلس يشترى به كوزاً ، وفلس يشترى به ريحانا ، يشرب فى الكوز يومه ، ويشمّ الريحان يومه ، فإذا أمسى تصدّق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفّف الريحان وتدقّه فى الأشنان .

الأصمعىّ : قال أبو عمرو : كنت فى ضيعتى ، فاشتدّ علىّ الحرّ ، فكنت أدور فى سِدْرٍ فيها نصفَ النهار ، فسمعت قائلا يقول :

وإنّ امرءا دنياه أكبرُ همه لمستمسكٌ منها بحبلِ غرورِ[1]

---

(١) الخبر والبيت فى طبقات النحويين واللغويين الزبيدى ٣٣ .

فقلت : إنسيّ أم جنّيّ؟ فما أجابنى ، فنقشته فى خاتمى ، فكان نقش خاتمه .

الأصمعيّ : كنت واقفاً بالمِرْبَد ، وإذا أنا بأبى عمرو ، فلما بَصُر بى مال إلىّ ، فقال : ماوقوفك هنا ياأصمعيّ ؟ قلت : إنى أحبّ المِرْبد وأكثرُ الجلوس فيه ، فقال: الزمْه ، فإنه يشدّ النظر ويجلو البصر ، ويجمع بين ربيعة ومضر . ثم أردت الانصراف ، فقال : إلى أين ياأصمعيّ ؟ فقُلت : إلى صديق لى ، فقال : إمّا لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلاّ فلا . ثم قال لى : مالى أراك بلا عمامة ؟ قلت : لاعمامة لى ، فنزع عمامته عن رأسه فدفعها إلىّ ، فكبُرَ ذلك علىّ ، فقال لى : إنّ لى بدلها إحدَى عشرة عمامة ، ثم قال لى: الزم العِمامة ، فإنّها تشد اللّامة ، وتحفظ الهامة ، وتزيد فى القامة ، ثم استخرج من كُمّه كيساً فدفعه إلىّ ثم قال : ياأصمعيّ ، لازلتم بخيرٍ مادمتم تأمرون بالمعروف ، وتنهوْن عن المنكر ، فإذا تركتم ذلك سلّط الله عليكم أقواماً غلاظاً فِظاظاً ، خِبْرتكم على قدر معرفتكم .

وأما قراءته وإعرابه المذكوران فى المقامة ، فإن شجاع بن نصر ، قال : قلت لأبى عمرو : كيف طلبت قراءة القرآن ؟ قال : لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنزل عليه ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : هرب أبى من الحجّاج ، وأنا شابٌّ ، فقدمنا مكة ، فلقيت بها عدّة من التابعين ممّن قرأ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل مجاهد وسعيد ابن جُبير وعطاء وغيرهم ، فقرأت عليهم القرآن ، وأخذت العربية عن العرب الّذين سبقونا باللحن،فهذه التى أخذت بها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشدُدْ يدَك بها .

وقال : خرج أبى هاربا من الحجّاج إلى اليمن ، فإنّا لَنسيرُ فى الصحراء باليَمَن إذ لحقنا لاحقٌ يُنشد :

رُبّما تجزع النفوس من الأمـــر له فَرْجَةٌ كحلّ العِقَالِ[1]

فقال له أبى : ماالخبر ؟ فقال : مات الحجاج ، فأنا بقوله : « فَرْجة » بفتح الفاء أشدّ سروراً منى بموت الحجاج ، فقال أبى : اصرف ركابنا إلى البصرة .

الفنجديهيّ : رأيت فى بعض الفوائد أنّ الحجاج قال لأبى عمرو : ماوجه قراءتك : ﴿ إلاّ مَنِ اغْتَرف غَرْفَةً ﴾ بفتح الغين ؟ فقال : أبلغنى ربقى ، فقال : قد أبلغتُك الفرات . وقال : قاتل الله ابن أم الحجاج ، لئِنْ لم تأتنى بالجواب إلى خمسة عشر يوماً لأقتلنّك شرّ قتلة ، ووكّل به موكلين، فخرج أبو عمرو يطوف فى أحياء العرب، فلم يجد له حُجّةً إلى يوم وعده، فجزّه الموكّلون به ليُرجعوه إلى الحجاج ، فسمع راعياً ينشد : رُبّما تجزع النفوس ... البيت ، فقال له أبو عمرو : كيف تنشد هذا البيت : له فَرْجة أو فُرجة ، فقال : فَرْجة وفُرْجة ، وكذلك كلّ ماجاء على فَعْلة ، فلنا فيه ثلاث لغات ، فقال له أبو عمرو : فما سبب إنشادك هذا البيت فى هذا الوقت ؟ فقال: إنّا كنّا خائفين من الحجاج ، وقد بلّغنا نعيُه ، قال : والله لا أدرى بأيهما كنت أشدّ فرحاً ، بوجدانى الجواب والحجّة لقولى واختيارى ، أم بموت الحجّاج !

سفيان بن عيينة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له : يارسول الله ، قد اختلفت علىّ القراءات ، فبقراءة مَنْ تأمرنى أن أقرأ ؟ قال : بقراءة أبى عمرو بن العلاء .

وقال أبو العباس بن سُريج : من أراد أن يتظرّف فعليه بمذهب الشافعى ،

---

(١) البيت لأمية بن أبى الصلت، وهو فى اللسان ، (فرج) وذكر قبله :

* لا تَضِيقَنَّ فى الأمور فقد تُـكْشَفُ غماؤها بغير احتمالِ *

وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز ، فقيل له : قد عرفنا مذهب الشافعيّ وقراءة أبي عمرو بن العلاء ، فأنشدنا من شعر ابن المعتزّ ما يوجب الظّرف فأنشد :

كنت صَبّاحِي قرير عينٍ فصرتُ أمْسِي صَرِيع بَيْنِ
بعين نفسي أصبتُ نفسِي فالله بيني وبين عيني

وكان يقول : إنّما نحن فيمن مضى ، كبقل في أصول نَخْل طوال .

وقال أبو عمرو : ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد ، فقال : إن الله تعالى لا يُوعدنا بشيء فيخلفه ، فقلت له : يا أبا عثمان[1] ، ليس لك علم باللغة ، إنّ خلف الوعيد عند العرب ليس بخلف ، وأنشد :

وإني وإن أوْعَدْته أو وَعَدْته لَيُكذب إيعادي ويَصْدق مَوْعِدي[2]

وقال أبو عمرو : كنت رأساً والحسن حيّ . وتوفّيَ بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعلى قبره مكتوب « هذا أبو عمرو ابن العلاء مولى بني حنيفة » .

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة .

أبو عبيدة : دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك ، فسأله عن شيء فصدَقه فيه ، فلم يعجبْه ما قال ، فخرج أبو عمرو وهو يقول :

أنفت من الذلّ عند الملوكِ وإن أكرموني وإن قرّبُوا
إذا ما صدقت لهم خفتُهمْ ويَرْضَوْن منّي بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد : رأيت أبا عمرو في المنام ، فقلت : ما فعل الله

(١) أبو عثمان كنية عمرو بن عبيد .
(٢) البيت كما في اللسان (وعد) لعامر بن الطفيل ، وروايته .
* لمخلفُ إيعادِي ومُنْجِزُ موعدي *

بك ؟ فقال لى : دعنى مما فعل الله بى ، مَنْ أقام ببغداد على السنّة والجماعة ومات، نُقل من جنة إلى جنة .

* * *

[ذكر مناقب الأصمعى]

وأما ابن قُريب ، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب بن علىّ بن أصمع ، وإلى أصمع هذا يُنسب . وأصمعُ فخِذٌ من بنى قتيبة بن معن بن أعْصَر بن سعيد بن قيس بن عَيْلان ، وبنو معن هُمْ بنو باهلة ، وباهلة امرأة من هَمْدان تزوّجت معناً فنُسب ولده إليها . والأصمع فى اللغة الضامر الذى ليس بمنتفخ ، ومنه الصَّوْمعة لضُمرها ، وتدقيق رأسها ، ومثله قولهم : جاء بثريدة مصمّمة ؛ إذا رققها وأحَدّ[1] رأسها، وسهم متصمّع : متلطّخ بالدم ، فانضمّت قذَذُه[2] .

وكان الأصمعىّ حافظا عالما فطِناً عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير التطوّف بالبوادى لاقتباس علومها وتلقّى أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار ، وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء ، وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات ، فى حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيّات ، صاحب دين متين ، وعَقْل رصين ، وكان خاصًّا بالرشيد ، آخذا لصِلاته كثيرا ، وقد تقدّم فى هذا الكتاب من الحكايات المسنَدة إلى الأصمعىّ ، مايدلّ على تبحّره وحفظه .

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريرىّ هنا : حدّث الأصمعى رحمه الله، قال : أعرابىّ : حُسْن التدبير مع الكفاف ، أكفى من الكثير مع الإسراف .

الأصمعى: سمعت أعرابيًا يقول: مَنْ كساه الحياء ثوبه، أخفى على الناس عيبَه .

---

(١) ط : « أخذ »

(٢) القذذ : جمع قذة ، وهى ريش السهم .

الأصمعيّ : قال أعرابيٌّ : من اقتصد فى الغنى والفقر ، فقد استعدّ لنائبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : عداوة الحكيم أقلّ عليك ضَرَراً من مودّة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ النّاس مَنْ قصّر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضيّع مَنْ ظَفِر به منهم .

وقال : تزوّج أعرابيٌّ إلى بعض الحاضرة ، فلمّا كان ليلة دخوله بها ، إذا هى أدماء مجدورة ، فخرج مِن البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِى أدماء مجدورةً كأنها من خَشَبِ الهيتِ
قبيحة الوجهِ لها منظرٌ يفرّ منه ملَكُ الموتِ

قال : وجَرى بين أعرابىّ وبين امرأته كلام بالمِرْبد ، فشتمته ، فقال لها : اسكتى ، فوالله ماشَعرُكِ بوارد[1] ، ومافوك ببارد ، ولا ثديك بناهد ، ولا بطنُك بوالد ، ولا الخير فيك بزائد ، ولا الشرّ فيك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعى عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ومحتمل طولها لما احتوتْ عليه من غرائب الآداب ، وكان مجالسَ مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كلّ رجل منهم أفضلَ ما يذكر .

حدث الأصمعىّ قال : استدعانى الرّشيد فى بعض الليالى ، وقد تصرّمتْ قطعة من الليل ، فراعنى رسلُه ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا فى المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل ، فلمّا لحظنى الرشيدُ استدنانى ، فدنوت منه ،

(١) الشعر الوارد : الطويل المسترسل .